من عالم الصراب

ماء الشهر

قصة قصيرة من عالم الصراب

مهلهل علي الفقيه

١

كان عيضة ينزل إلى العين قبل أن يصيح الديك، فيغرز عصاه في الماء حيث يغرزها منذ خمسين سنة، ثم يرفعها وينظر إلى الحزّ الذي بلّه الماء.

وكانت هند تراه من سطح بيتها، وتعدّ.

بقي على آخر الشهر ثلاثة وعشرون يوماً. وفي آخر الشهر يأتي جابر، ومعه الورقة التي كتبها أبوها بيده قبل أن يموت، وفيها الدين، وفيها أن البستان رهن به.

كان الصيف شحيحاً. انقطع المطر قبل أوانه، وصار لكل بيت دور عند العين، يبدأ حين يبلغ الظل حجراً وينتهي حين يبلغه الحجر الذي بعده. وكانت هند تحمل جرتها إلى البستان، ثم تقف بين الشجر ولا تعرف عند أي ساق تضعها.

المشمش أخضر، قريب من النضج. لكن حباته لا تكبر.

وكانت قد قالت لأبيها في ليلته الأخيرة: «لن يخرج من أيدينا». ولم يكن يسمع جيداً، فقالتها مرتين.

٢

قال عامر على العشاء:

— بيعيه.

لم ترفع هند عينيها عن الصحن.

— بيعيه لجابر قبل أن يأخذه. خذي ما يعطيك، ونذهب إلى المدينة.

— أنت تذهب إلى المدينة.

— وأنتِ؟

— أنا أعدّ.

ضرب عامر الصحن بكفه وخرج. كان في السابعة عشرة، وكان يعرف أن أخته رفضت ثلاثة خطّاب لأن كل واحد منهم نظر إلى الشجر قبل أن ينظر إليها. وكان يعرف أيضاً، ولا يقولها، أنها منذ مات أبوها تسقي الشجر كل مساء ولا تسأله متى نام ولا هل أكل.

٣

كان قد وجد الحجر في عصر ذلك اليوم عند العين، وهو ينتظر دوره. حصاة سوداء في شقّ من صخرها، حكّها بإصبعه حتى خرجت، ووضعها في جيبه كما يضع الصبيان ما يجدونه.

وفي تلك الليلة لم ينم.

صعد إلى البستان، وجلس عند المشمشة الكبيرة التي غرسها جدّه. كانت هند قد أعطتها نصف جرتها، وبقيت الأوراق منكمشة، وحبات المشمش صلبة خفيفة، كأن داخلها فارغ.

وكان يقلّب الحصاة بين أصابعه. قبض عليها عند الساق، وأسند رأسه إلى الجذع. ثم غلبه النوم قليلاً. فأفاق على ورقة تمسّ خده.

رفع رأسه. كانت الورقة قد انبسطت، وأخرى إلى جوارها. مدّ يده الحرة إلى غصن منخفض، فوجد أوراقه أبرد مما تركها، وحباته أشدّ امتلاء.

تحسس التراب حول الساق. كان جافاً.

نظر إلى القناة القادمة من العين. لم يسمع ماء، ولم يرَ بللاً.

فتح كفّه عن الحجر، وظل ينظر إلى الشجرة حتى الفجر.

٤

في الصباح جاءت هند إلى المشمشة، فرفعت غصناً، ثم وضعت الجرة على الأرض.

— سقيتها؟

كان عامر عند الجدار.

— من أين أسقيها؟

نظرت إلى الجرة، ثم إلى القناة الجافة، وقرّبت حبة من وجهها.

— لعل جذورها بلغت ماءً.

ولم يقل شيئاً.

وفي الليلة التالية رجع بالحجر. جلس عند ساق شجرة أخرى، وقبض عليه كما فعل أول مرة، وانتظر.

لم يتغير شيء زمناً طويلاً. ثم بدأت الأوراق المنكمشة تنبسط، ببطء لا يدري أيراه أم يتخيله. بقي حتى تعب ظهره، وحين قام كانت الشجرة مختلفة عن جارتها التي لم يلمسها.

مرّ عامر بيده على أوراق الجارة اليابسة، ثم عاد إلى الأولى.

٥

صار يصعد كل ليلة.

كان يحمل الحجر من ساق إلى ساق، ويجلس قابضاً عليه حتى لا يرى في الأوراق تغيراً جديداً. وحين تعود الشجرة إلى الانكماش في ليلة أخرى، يعود إليها. وفي النهار يعمل مع هند، فتقول إنه يسهر مع أصحابه، ولا يجيب.

وبعد أسبوع بدأ اللون الأصفر يظهر بين الأوراق. كان وقت المشمش قد جاء، لكن أكثر ثمر الوادي ظل صغيراً، وبعضه سقط قبل أن ينضج.

أما أشجارهم التي مرّ عليها، فكان المشمش يثقل أغصانها.

تعلّم عامر أن يسند ذراعه إلى ركبته، وأن يبدّل جلسته حين تخدر ساقه، وأن ينهض قبل أن تنام يده. وكان يرجع إلى البيت فيستيقظ قبل أن يشعر أنه نام.

٦

في ذلك الأسبوع كان عيضة يغرز عصاه في العين، فيجد الماء أقلّ من أمس.

كان قد ضيّق الأدوار مرتين، ومنع سقي البساتين يومين، ومع ذلك لم يثبت الماء عند حزّ واحد.

فلم ينم في الليلة الثامنة. جلس عند العين حتى خلا الطريق، ثم مشى على القناة، يتحسس حجارتها، ويبحث عن فتحة لم يسدّها صاحبها بعد دوره.

لم يجد ماء يجري.

وفي طريق العودة رأى عامر من خلال جدار البستان الناقص. كان جالساً عند شجرة، كفّه مطبقة على شيء عند ساقها، ورأسه يسقط ثم ينتبه له. وفوقه مشمش أصفر لم يره عيضة على شجر القرية إلا قليلاً ذلك العام.

انتظر حتى قام الفتى وانتقل إلى شجرة أخرى. ودخل من فتحة الجدار، وتحسس التراب الذي تركه. كان جافاً.

وفي الفجر عاد إلى العين، وغرز العصا، ثم رفعها مرة ثانية.

٧

حمل عامر أول سلاله إلى السوق، وعاد بدرهم لم يكن يتوقعه عن كل حفنة. كان المشمش كثير اللحم، والتجار يسألون عن بستانه، لأن ما جاءهم من القرى الأخرى كان صغيراً يابس الأطراف.

وحين عدّ الدراهم في الطريق عرف أنها لا تبلغ ربع الدين.

وفي المساء قالت هند، وهي تقلّب النقود:

— من أي شجر قطفت؟

— الذي نضج.

— أعرف شجري يا عامر.

رفع عينيه إليها، ثم إلى الجرة الفارغة عند الباب.

— اليوم عرفتِ تسأليني؟

وضعت النقود في الصرّة، ولم تعدّها مرة أخرى أمامه.

٨

جاء عيضة في الضحى. لم يجلس.

— من أين يشرب بستانكم؟

قالت هند:

— أنت قسمت الماء.

— وأنا الذي أقيس ما بقي منه.

وقصّ عليها ما رأى. وخرجت معه إلى المشمشة الكبيرة، فرفعت غصنها كما رفعته في الصباح الأول، ونظرت إلى التراب تحتها.

قالت:

— لا أعرف.

ثم سألته، دون أن تنظر إليه:

— كم بقي في العين؟

لم يجبها من فوره.

— في سنة العطش، قبل أربعين سنة، كانت أم صالح محمومة. وكنت أحمل لها الماء من العين، لأن الناس كانوا يقفون عليها بالجرار منذ الليل. وماتت وفي يدي جرّة لم تمتلئ.

وسكت، وعيناه على العصا.

— وقلت لها إن هذه العين لن تجفّ ما دمت أقيسها.

قالت هند:

— وأنا قلت لأبي إن البستان لن يخرج من أيدينا.

ونظر كل واحد منهما إلى الآخر، وعرف أن الماء لا يكفي وعدين.

٩

في تلك الليلة صعدت هند قبل أخيها، وجلست تحت المشمشة الكبيرة في العتمة، وانتظرت.

جاء ومعه الحجر، ورآها، فوقف.

— منذ متى؟

— من تلك الليلة.

— أتعرف من أين يأتي؟

لم يجب. نظر إلى القناة الجافة.

— كنت تريدين الشجر حياً.

أخذت يده. كان باطن كفّه أحمر، وعلى رسغه أثر الغبار والعرق. ونظرت إليه في ضوء القمر كما لم تنظر إليه منذ مات أبوها: عيناه الغائرتان، وذقنه التي ترتجف حين يحبس التثاؤب.

— لماذا؟ أنت تكره هذا الشجر.

— أكرهه.

— فلماذا؟

قال بعد صمت:

— لأني إذا سددتُ الدين، ذهبتُ إلى المدينة ولا أدين لكِ بشيء.

ولم تصدّق هند هذا السبب، ولم تكذّبه. كان فيه شيء من الصدق، وكان فيه ما هو أكثر منه.

قالت وهي تقوم:

— لا تصعد بعد الليلة.

ومدّت يدها إلى الحجر.

شدّ أصابعه عليه، فتركت يدها تسقط.

١٠

وفي اليوم التالي جاء جابر.

قال إن المشمش الذي بيع في السوق أعجب الناس، وسأل من أي شجر هو. وطاف في البستان، ينظر إلى أغصانه، ثم إلى القناة، ولمس جذع المشمشة الكبيرة.

وكان جابر قد خسر قافلتين في سنتين، وفي بيته أربع بنات لم يزوّج منهن واحدة. وكان يعرف من الشجر ما يكفي ليسأل لماذا أثمر هذا البستان حين خفّ حمل البساتين من حوله.

قال لهند وهو يخرج:

— آخر الشهر.

وبقي واقفاً عند الباب أطول مما يقف من قال كلمته.

ورآه عامر من السطح.

١١

في تلك الليلة صعد عامر إلى آخر صفّ من الشجر. كانت فيه مشمشة لم يأتِها بعد، وقد جفّت أطراف أوراقها، وبقي على أغصانها ثمر صغير.

جلس عند ساقها، وقبض على الحجر.

وانتظر.

لم تنبسط الأوراق.

غيّر موضع الحجر، وأسند ذراعه، وانتظر حتى غاب القمر. كان يرفع رأسه كل قليل إلى الثمر، ثم يفتح كفّه وينظر إلى الحجر، ويعود فيقبض عليه.

وحين طلع الفجر قطع حبة. كانت مجعّدة من جانب، صلبة من الجانب الآخر. شقّها بظفره، فلم يجد فيها ما يبلّ إصبعه.

وجدته هند جالساً هناك، والحبة المفتوحة على ركبته.

لم يسألها إن كانت العين قد جفّت.

١٢

اجتمع الرجال عند العين في ذلك الصباح. كان الماء قد نزل حتى بان من صخرها ما لم يره أحد منذ سنة العطش، وصارت الجرّة تُمال حتى تمتلئ. وتذكّر الكبار تلك السنة، فخافوا.

وسألوا عيضة، لأنه من يقيس.

ونظر عيضة إلى هند في آخر الجمع، ونظرت إليه.

ثم قال:

— الأرض تحرّكت تحت العين. مال المجرى إلى الجهة الأخرى. نحفر له قناة.

وحفر الرجال سبعة أيام في الصخر تحت الشمس، وأبناؤهم يحملون التراب في القفف. وكان عيضة يجلس عند العين كل يوم ويراهم، ويرى الدم على أكفّهم، ولا يقول شيئاً.

وفي اليوم الثامن ارتفع الماء قليلاً، بعدما انقطع ما كان يؤخذ في الليل، وظلّ عيضة يضيّق الأدوار.

وقال الرجال: صدق عيضة.

ولم يأكل عيضة تلك الليلة.

١٣

في آخر الشهر جاء جابر ومعه الورقة.

وكانت هند قد وضعت أمامها صرّتين: ما ادّخرته هي، ودراهم المشمش. ونظرت إليهما طويلاً قبل أن يصل. ثم أعطته الأولى وحدها، وكانت أقل من الدين بكثير، وأخذ البستان.

ثم قال، وهو يطوي الورقة:

— الشجر يحتاج من يعرفه. ابقي فيه بأجرة إن شئتِ.

ونظرت إليه هند، ورأت في عينيه أنه لا يسألها عن الشجر.

— أبقى.

وكانت قد أخذت الحجر من يد عامر في ذلك الفجر، وهو جالس تحت الشجرة، فلم يشدّ أصابعه عليه هذه المرة. ووضعته في خرقة، وأغلقته في صندوق أبيها تحت ثيابه القديمة.

وفي الليلة التي سافر فيها عامر أعطته الصرّة الثانية.

— هذا لك.

— وأنتِ؟

— خذه.

ونظر إليها، ثم أخذه.

وعند الباب قال، ولم يلتفت:

— لم أكن أكرهه كله.

ومشى.

ووقفت تراه يبتعد. ثم رجعت إلى الصندوق، ووضعت يدها على غطائه، ولم تفتحه.

١٤

وفي الخريف صارت هند تنزل مع عيضة إلى العين قبل أن يصيح الديك.

لم يطلب منها ذلك، ولم تستأذنه. كان يغرز العصا ويرفعها، ويمدّها إليها، فتنظر إلى الحزّ الذي بلّه الماء. فيقول: كم؟ فتقول. فيهزّ رأسه، أو لا يهزّه، ويغرز العصا مرة أخرى.

وفي الشتاء مات عيضة.

وكان قبل موته بأيام قد وضع عصاه المحززة في يدها عند العين، ولم يقل لماذا.

فصارت هي التي تنزل إلى العين قبل أن يصيح الديك.

وحفرت في الصخر، تحت علامة عيضة، علامة صغيرة لا يعرفها أحد: حيث كان الماء في أول ذلك الشهر، قبل أن يصعد عامر إلى البستان.

وفي كل فجر كانت تغرز العصا وترفعها، وتنظر.

لم يبلغها الماء بعد.